الحـب والغـريـزة الجنسـية

لا نبالغ ولا نلهو بالكلام إذا قلنا أن الحب يلعب دورا في حياتنا لا يدانيه في أهميتـه وخطورته دور اى عامل آخر من تلك العوامل التي تقوم عليها حياتنا الطبيعيـة وحياتنـا الاجتماعية، بل هو يكاد يكمن خلف كل وجه من وجوه النشاط كما تكمـن نـسمة الحياة في كل عضو حتى تدفعه وتوجهه. ولعلك تعلم أن من العلماء من يضيف إليه كل نشاط في حياة الإنسان لا يستثنى من ذلك شيئا. على أننا نتجنب دائماً الأحكام العامـة الشاملة ونتوجس منها خيفة شك، فلنقنع إذن بالاعتراف له بمكانة خطيرة في حياة الفرد والتمع. وأنه مما يستحق الذكر أن بعض الفلاسفة كان يتصور أن هذا الحب لا يقتـصر نفوذه على حياة الإنسان والحيوان ولكن يتعداه إلى حياة الطبيعة نفسها، إلى حياة المادة أو إلى وجود المادة إذا راعينا الدقة، هؤلاء كانوا يرونه عاملا من عوامل تكـوين الوجـود فالفيلسوف القديم أمبير وكل كان يقول بأن اصل الوجود هو العناصر الأربعة المعروفـة وأنه باتصالها وانفصالها تحدث الأشياء جميعاً وأن ذلك الاتصال والانفصال يحدثان بفعل قو تين هما المحبة والبغضاء، كذلك كان شوبنهور يقول بأن الأنانية توجد في عناصر الطبيعـة وأنا تتخذ صور الدفع والجذب أو الكراهية والحب.

ولا شك أنه من الممتع أن يكشف الإنسان الستار عن كنه هذا المعنى الجميل، هذه القوة القاهرة، التي تسيطر على حياتنا وتملك عنان خواطرنا وتؤثر اكبر الأثر في حاضـرنا ومستقبلنا، والكلام عن الحب وثيق الارتباط بالكلام عن الغريزة الجنسية، فمهما ارتقـت العاطفة إلى السمو فليس يقطع سموها الصلة التي تشدها إلى منبعها الغريـزي البـسيط في طبيعة الإنسان بل لعله لو حدث هذا القطع لكان هو القاضي على العاطفة وسموها معـا، فمن الضروري – لكي نفهم الحب – أن نعنى أولا بفهم هذه الغريزة وهو ما نخصص له هذه الكلمة.

تقوم الغريزة الجنسية على إفرازات داخلية، تفرزها غدد خاصة تسيطر على نمـو الأعضاء التناسلية، وهذه الغريزة شائعة بين جميع الحيوانات ولكن حالتها تتغير مما يـدل على أنا خضعت لتطور عام تختلف درجاته في الحيوانات البسيطة عنـها في الحيوانـات

الكبيرة والحيوانات العليا، ويقول الأستاذ ريبو أن الغريزة الجنسية في شكلها البسيط عند الحيوانات الميكروسكوبية والحيوانات المتجانسة تظهر لها أعراض حيوية وعضوية ففي النقاعيات يتحد الزوجان ويتصلان حتى يصيرا وكأنما شيء واحد فتقوى الحياة فيهما وتتضاعف ثم ينفصلان عن بعضها وقد وهب كل منهما حيوية جديدة تمكنه من الانقسام والتوالد وحده زمنا طويلاً قبل أن يضمحل. وهذه الحالة تذكرنا بما نعرف عن خلايا الجسم الإنساني وما يحدث لها من الانقسام والانفصال. ويضيف بعض الفسيولوجيين إلى النقاعيات حاسة جنسية متمتعة بالشعور ويقولون أنه قبل أن تتصل الواحدة منها بالأخرى تحس برغبة خفية في الالتئام والتزاوج وأن هذه الرغبة هي التي تدفع بالواحدة إلى أحضان الأخرى. ويرى آخرون في اتصال النقاعيات وانفصالها تفاعلات كيميائية لا حياة فيها ولا شعور. على أن مثل هذا الحكم يشعر بما فيه من تطرف غير محمود في دراسة الظاهرات النفسية ، ولذلك فقد لا يحب بعض علماء النفس – مثل ديماس – أن ينشئ اى علاقة بين الخلايا الجسمانية والظاهرات الفسيولوجية السيكولوجية التي تكون الغريزة الجنسية – على هذا الاعتبار – مستقلة عن دراسة هذه التفاعلات الكيميائية البيولوجية.

والغريزة الجنسية تتحور في الحيوانات العليا إلى رغبة، إلى حاجة ملحة، لا يؤثر اختيار الفرد من قوتا أو ضعفها، أو أن قوتا أو ضعفها لا تتحدد باختيار الشخص ورغبته.

ويذهب بعض الأطباء والفسيولوجيين إلى أن كل حاجة نفسية أنما تنشأ من نمو الأعضاء المحيطة الخارجية، والغدد المتصلة با، وهو رأى الماديين الذين يعتبرون الحالات النفسية أو الظاهرات العقلية كآثار تصدر عن المادة الجسمية أثناء تطورها وتعقدها، يقول كرافت ابنج " الحياة الجنسية تظهر أول ما تظهر عن طريق أحساسات تأتى من الأعضاء الخارجة أثناء نموها " ويقول بونى أن هذه الأعضاء تحدث فجأة أحساسات جديدة، يسرى أثرها إلى الجهاز العصبي فيحيل من الذكاء والإحساس والأخلاق.

ويوجد بجانب هؤلاء، علماء آخرون مثل جونى رو من يستهينون بهذه الآراء ويقولون باستقلال الغريزة الجنسية عن الأعضاء الخارجية وما تجلبه من أحساسات، ولو أنم يسلمون بما لهذه الاحساسات الدخيلة من أهمية خطيرة في تطور الغريزة الجنسية،

وجونى رو يرى في الغريزة الجنسية حالتين: رغبة عامة غامضة تكمن في الجهاز العـصبي كله رغبة، يحس الإنسان بسريانا ويشعر بالحاجة إلى إشباعها من غير أن يفطن إلى مـا يشبعها، وقد أجاد روسو وصف هذه الحالة النفسية حين يقول " كنت مضطرباً مذهولاً حالماً أبكى أتنهد، وكنت أتوق إلى هناء ليس لدى عنه فكرة، ومع ذلك كنـت أحـس بحرماني منه " ثم رغبة واضحة تستقر في محل وتعرف ما يشبعها، وهذا رأى العلماء الذين يؤمنون باستقلال الحياة النفسية من غير إنكار لما بينها وبين الوجود المادي من علاقة وثيقة متبادلة التفاعل.

ومهما اختلفت الأقوال وتعددت المذاهب في تعيين منشأ هذه الغريزة، فمما لاشك فيه أنا موجودة وأنا قوية، متمكنة ممتدة السلطان على حياة الفرد والجماعة. وبحثا لها من الوجهة الطبيعية الفسيولوجية لن يخرج عما سردنا من مجمل الآراء، ولكن ليس معنى هذا أنه كل ما يمكن أن يقال عنها بل لعله لو قورن بالدراسات الأخرى المتعددة التي تتناولهـا من وجهات مختلفة تبين أثرها في حياة الفرد والتمع، ولعله لو قورن بذلك كله لوجـد تافها بسيطا. ونحن نعتقد أن كل النتائج المعقدة التي تنتج عنها وكل الأدوار التي تلعبها أنما يمهد لها التمع، التمع ذلك المعنى المادي ! الذي يؤثر في حياة الأفراد أثرا لا يدانيه أثـر على الإطلاق. التمع بقوانينه وأحواله هو الصانع لكل الأحوال والأشكال التي تلبـسها هذه الغريزة وتظهر بمظاهرها. هو المسرح الطبيعي التي تمثل عليـه أدورا التقـى والـشر والطاعة والعصيان والاستسلام والثورة والتسامي والانحطاط، وتفسير ذلك في رأينـا أن التمع بظروفه وأحواله يحارب الغريزة الجنسية وينصرها، ويقهرها، ويقويهـا، ويـصب عليها ما يسيرها ويمدها بما يوقظها ويحييها، فهو بدينه وتقاليده وقوانينه يضطهدها ويحاربا وقد يشتد فيزهد فيها، أهون ما يفعله فيها أن يلقى عليها ثوباً مدنساً من العار والخجـل، وهو من جهة أخرى بمشاهده ومراقصه وفنونه وآدابه بل بنفس تحريمه يقويها ويوقظهـا، فكأنه يهيئ لها أسباب القوة والضعف والحياة والموت. وطبيعي أن ينشأ عن ذلك حالـة الصراع التي تشاهد في التمع وأحوال الإفراط والتفريط التي تتبادل قذائفها بين الصوامع ودور الخلاعة، فمن الناس من تسمو به غريزته إلى السماوات ومنهم من تـوى بـه إلى الحضيض ومنهم من يتردد بين هذه وتلك في اضطراب وشقاء

على أن تفاصيل هذه الأحوال يحتاج إلى ما لا نملك من الوقت ونحن أنما أردنا بكلامنا عن هذه الغريزة أن نمهد إلى كلامنا عن الحب.